الشيخ مبارك بين التطلعات الروسية والمصالح البريطانية في الكويت 1896-1904م

عبدالله الهاجري

مدرس، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الكويت

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

93

العدد 110/ 28

الملخص

تتناول هذه الدراسة التحركات الروسية تجاه الكويت في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (1896-1904)م، التي ازدادت فيها الأهمية الاستراتيجية لموقع الكويت، وأصبحت محط أنظار العديد من القوى الاستعمارية الكبرى في العالم، وقد استُهلت هذه الدراسة بتقديم خلفية تاريخية عن التحركات الروسية في منطقة الخليج العربي في العصر الحديث بشكل عام، ثم تطرقت إلى المحاولات الأولى لدخول الروس إلى الكويت عبر عروض مشاريعهم المختلفة، كما استعرضت الدراسة موقف الحكومة البريطانية من تلك التحركات وتأثيراتها السلبية على نفوذها في منطقة الخليج العربي، وألمحت إلى أن أهمية الكويت من الوجهتين الجغرافية والاقتصادية كان لها - دون شك - دور كبير في تحديد اتجاهات تلك التحركات، وأن بعض المشاريع الروسية وغيرها من المحاولات والتحركات تجاه الكويت كانت من الأسباب المباشرة التي أدت - فيما بعد - إلى عقد اتفاقية الحماية البريطانية الكويتية، كما هدفت الدراسة أيضاً إلى إلقاء الضوء على جزء من تاريخ العلاقات الخارجية للكويت في تلك الفترة الحرجة على الرغم من قصرها، ورصد تطور السياسة الخارجية الروسية بمنطقة الخليج في غمرة السباق والتنافس مع العديد من القوى الاستعمارية، وكيف استطاع الشيخ مبارك الكبير احتواء التحركات الروسية ما بين مجاراتها تارة وصدها والوقوف بوجهها تارة أخرى، وهي تحركات لو استطاعت روسيا من خلالها الوجود على أرض الكويت لكانت خريطة الخليج العربي اليوم كلها تغاير ما هي عليه الآن، خاصة أن المصادر تؤكد أن هناك ميلاً وازدواجية في سياسة الشيخ مبارك وتعامله مع القوى الموجودة في المنطقة ومحاولاته المتكررة بمعادلة قوى بقوى أخرى، واعتمدت الدراسة على عدد من وثائق من الأرشيف الروسي بجانب مصادر رئيسية أخرى، ترصد تلك التحركات، مع بيان أن السياسة الكويتية الوليدة في تلك الفترة، عانت كثيراً ضغوطاً دولية أثرت - بدرجة كبيرة - على بعض توجهاتها، وفرضت أحداثاً كان لا بد من التعامل معها وفقاً لمعطياتها.

- كيف استثمر الشيخ مبارك الخلافات والصراعات الدولية التي كانت تدور بين القوى الكبرى، لصالح الإمارة على الرغم من الضغوط التي كان يتعرض لها ؟

وانطلاقاً من هذه التساؤلات نحاول النفاذ إلى بعض الجوانب المتعلقة، منها :

- التطلعات الروسية في منطقة الخليج العربي تعبيراً عن المصالح الاقتصادية.
- التطلعات الروسية نحو الكويت: أهدافها ومظاهرها.
- موقف روسيا من معاهدة الحماية البريطانية 1899م.
- موقف الشيخ مبارك من التطلعات الروسية: سياسة الحذر والحيطة واستغلال الظروف الملائمة.
- محاولة استثمار الشيخ مبارك الموقف الروسي من الحماية البريطانية لصالح الكويت.

تمهيد

إن تلمس الصورة الحقيقية من خلال كتابات المعاصرين الأجانب عن تلك الفترة محل الدراسة لا تخلو غالباً من بعض الافتراض والميل(1)، حتى فيما يتعلق بالوثائق الأصلية ذاتها، خاصة تعرف الأسباب الحقيقية التي دعت الشيخ مبارك لطلب عقد حماية مع روسيا على غرار التي تم عقدها مع بريطانيا، وفي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تسعى لتصفية أي نفوذ دولي بالمنطقة يهدد وجودها القوي هناك، لذا عمدنا إلى محاولة تحديد الآليات التي استخدمها الروس، في تحركاتهم على الكويت والمنطقة، وطبيعة هذه الآليات، كبعض المشاريع التي كانت في ظاهرها ذات صبغة اقتصادية، في حين أنها كانت تمهد في الواقع لتحقيق أهداف سياسية غير معلنة، تتمثل في الوصول إلى المياه الدافئة التي كانت بمنزلة حلم طالما سعى الروس إليه وعملوا من أجله، مع علمها بأن

لأخيرة بالتوقيع على معاهدة كيتشك - قينارجة في 21 يوليو 1774م؛ فاكتسبت روسيا على خلفية تلك المعاهدة حقوقاً تجارية وبحرية مهمة؛ إذ أصبح من حقها إنشاء قنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية، وأصبح لرعاياها حق التجارة[9].

وقد مهدت هذه الاتفاقية لروسيا طريقاً للتدخل بطرق مباشرة وغير مباشرة في شؤون كثير من البلدان التابعة للدولة العثمانية في ذلك الوقت، بحجج كثيرة، أهمها حماية مصالحها التجارية ومصالح القنصليات الخاصة بها في تلك البلدان.

وعندما دخلت روسيا مرحلة التحديث التي أهلتها لكي تصبح واحدة من الدول الكبرى على مسرح الأحداث، أدرك الروس حاجتهم إلى تغيير موازين القوى لصالحهم في المناطق المحيطة بالإطار الجغرافي لروسيا القيصرية، وبما يسمح لهم بتجاوز البيات الشتوي الذي يفرضه عليهم تجمد البحار الشمالية، وذلك بفتح ممرات آمنة تجاه المياه الجنوبية أو ما يعرف بالمياه الدافئة، ولتحقيق هذا الغرض أخذ الروس يتحركون في اتجاهين:

أحدهما تمثل في الضغوط المستمرة التي كانت تمارسها على الدولة العثمانية الضعيفة وحروبها الطاحنة معها، التي تنازلت فيها الدولة العثمانية عن مناطق إقليمية مهمة كالبحر الأسود، والضغوط الدبلوماسية الشديدة أيضاً على أمل أن تؤدي في النهاية إلى التسليم بمشاركتها في إدارة المضايق، ومن ثم الوصول إلى البحر المتوسط، ومنطقة الشرق الأدنى، وبذلك يصبح في إمكان روسيا التدخل في شؤون الدولة العثمانية والمناطق التابعة لها. فلا غرابة، إذاً، أن تحاول روسيا - وهي أقرب جغرافياً لمنطقة الخليج من قوى أخرى، كألمانيا وفرنسا وبريطانيا - أن يكون لها نفوذ هناك، خاصة في ظل وجود القوى الاستعمارية الفعلية المستقرة، وعلى رأسها بريطانيا[10].

والاتجاه الآخر تمثل في السيطرة على مساحات واسعة من آسيا الصغرى؛ فتوغل روسيا إلى ما وراء بحر قزوين واقترابها من حدود أفغانستان، أعطى لها حافزاً ودافعاً قوياً لمحاولة فرض السيطرة والنفوذ لما هو أبعد وأهم، ومرجع ذلك يعود إلى عدة أسباب، منها:

التحرك الروسي نحو الكويت

كان النشاط الروسي حتى عام 1890م مركزاً في منطقة الشمال الفارسي[15]، و لعب القناصل الروس، وبخاصة في البصرة وبغداد، دوراً مهماً في فتح قنوات اتصال بين روسيا وشيخ الكويت، خاصة أن روسيا بدأت بالفعل في ربط الأمور القنصلية بأمور التجارة، هذا في الوقت الذي بدأت البعثات الروسية تتردد فيه بكثرة على المنطقة[16]، وكانت الجهود الروسية المبذولة في فارس، والتي تمثلت في إقامة كثير من المشروعات الاقتصادية وفتح القنصليات وإرسال البعثات، أحد العوامل المشجعة على تنامي الطموح الروسي إلى دخول الكويت، ولم يكن من قبيل المصادفة أن يركز الروس على الكويت بعد أن أصبحت مركز نشاط تجاري بالمنطقة حتى شبهت بأنها "مرسيليا" الشرق[17]، بعد أن شهدت علاقتها التجارية تطوراً كبيراً ملموساً، خاصة مع الهند وعدد من البلدان الأخرى، وعدت الميناء الأساسي لجزيرة العرب الوسطى والشمالية والشرقية[18]، وهذا ما دعم مركزها التجاري كثيراً، في ظل حرص الشيخ مبارك على إبقائها خارج السيادة العثمانية[19].

وقد توالت منذ عام 1896م الرسائل والتقارير التي تحمل في طياتها وضع الإمارة وتأثيره في المنطقة، ولما كان الصراع الاستعماري في الخليج في أواخر القرن التاسع عشر قد تجاوز الحدود حول المنطقة الشمالية للخليج بما فيها الكويت، فقد أبدى الروس اهتماماً خاصاً بمنطقة الخليج، وعبرت روسيا عن ذلك صراحة على لسان وزير خارجيتها لامز دورف L. Dorf، الذي صرح قائلاً إن: "السياسة العامة لروسيا القيصرية أولاً وقبل كل شيء سياسة آسيوية"[20]، لذا تابع الروس باهتمام الأحداث الداخلية والانقلاب الذي قام به الشيخ مبارك عام 1896م على شقيقيه محمد و جراح[21] وقد كان نتيجة للحادث هذا أن شكت الدولة العثمانية بأن وراء العملية دعماً بريطانياً، وهو ما دعاها أيضاً لعدم الاعتراف بالشيخ مبارك؛ حيث يذكر مستشار السفارة البريطانية في استانبول في مذكراته المؤرخة 30 يونيو 1896م ما ترجمته: "تم مؤخراً اغتيال الشيخين الشقيقين محمد وجراح، ووصلت إلى الباب العالي أنباء تفيد أن الشيخ مبارك،